

أَعْوَامُ الْجُوعِ

عز الدين النازي :

والليل متقلب حزين ، في منزل خرب ليس بالصفى ولا بالشئوى ، تسكنه روحان وجنتان مفصولتان ، تلامسهما الظلمة واربعة جدران وسقف واطيء ، والتلامس دفاء لا يحسه الجسدان ، الحس واحد والهروب واضح في المجال الظلامى المحدود بالسقف والجدران . لا نثرثر ولا نعرف كيف نتحدث . لا نطلب . الوجود يتفسخ خارج الجسدين المقشرين النحيلين حتى الضوء مسافة منعدمة بين أنا وهى ، وبين الفجوة التى تعصرنا في مجال ميت ساكن . لا احد يتعرف ، ورائحة الزمن ثقيلة ، والايدي تحاول سحب اكفان الجوع عن الجسدين ولا تستطيع . الذهول خامد في الرأس ، والموت شئ متوقع .

يدور المنزل القديم ويسقط في مسافة من الغربية الصحراوية لها مذاق العطش ، في هدب العين منفية الى خرائب الغبار والتعفن . المسافة كالتاحونة ، تدور على كتلة متلاصقة من العظام اليابسة المقتشرة المصفوعة بشواظ الجحيم ، في بيت تتلامس جدرانه ، والليل متقلب حزين . كتلة متلاصقة اخرى تتحرك في الدرب العتيق ، نعش واربعة اكتاف تتهرا تحت الثقل ، ودفقات من المطر المتتابع المسترسل . يقولون انه مطر الرحمة . الجثة تهتز . الاكتاف تنأى بالثقل . لا احد يسير خلف النعش ، المطر اخلى الطريق من العابرين ، ورياح الموت عاصفة ، يسير الموكب هادئا ، ولا صوت الا رياح الموت تثقب الفضاء ، وتخز الجلد ، وتترك في عيون حاملي النعش حزنا وذكرى ، وهل يتبيه الانسان في اكثر من الريح الخائبة ، الفاصلة بين القلب والقلب ؟

يومها كنا نعيش ، ونأكل من طوبنا خبزا وزيتونا ، نمد على مائدة الفقر فواكه من جسدنا ، ونشعل من عيوننا اضواء النجوم ، وآفاق من ذاتنا نحق فيها ونغرق في أغنيائها ، ولم تكن ندرى ان اليباب هو استعمال الرأس شيئا وانه مدينة القبور . نأكل من طوبنا خبزا وزيتونا ، نرى حقولا فسيحة من النجح والخضرة كانت لفا ملهى وهى مسروقة السنابل ، ننظر

الى عيون بعضنا ونقرر الصمت ، لان الظلام خلفنا والسجون الارضية
التي بنيت جدرانها بعظام المصلوبين ، ولكننا نبصق الحقد وينطفئ ضوء
الاجم في عيوننا .

وقفنا عند ابواب الريح ، يثقب الاسماع خرق الريح ، قاتوا رياح
اخرى وليت الريح كانت تجرى بما تشتهي السفن . وقتلنا هي الريح بين
أيدينا خناجر مفلولة هل نترك أعناق الكلاب نافرة والعيون على تحديها ؟
ونبقى اريح مكسورة ، لا ترفع ولا تخفض ، تجول في الساحة نكسر كل
قرب مهزوم ، تزرع الاشواك في الاجساد توقظ أحزاننا طفولية وتنكس
الرؤوس . وشوارع المدينة دم . دماء الشوق والموت والاحداق دم .
دم هو الانسان يموت صبوا ، دم الانسان شوق وحقد ، وجاء بالنبوءة
ادف وما صدقت نبوءة واحد من ذوى السحنات الباردة القبرية ، وفي
رتابة الزمن الماضى والآتى لا يصدق افعل السريع ولا يكون الناس من
الناس وبقى ضرسا مخلوعا وعيونا مسمولة واشلاء منشورة في وجه
الريح او نعشا يتحرك .

حفرة ساخنة منهوشة تنتظر ، والطريق اليها أزقة ميتة قديمة ،
توارت عنها شمس النهار . الاكتاف الاربعة تميل ويهصرها الثقل . سكون
ظلامى وتطلع ، وخطوات بطيئة تنسرب نحو المقبرة . لا ظل للنعش
المتحرك بين المطر والغمام المغموس في وجه السماء . امطر يتدفق في
عروق الارض ، يسمونه مطر الرحمة ، والمنعطفات تدور بالنعش ولا
شك سئلقيه خارج المعنة القائمة وخارج الريح والحناجر المثلومة .

وقالت يدى سكرية ، فكلمها ولا تنتظر مائدة من السماء ولا اخرى من
الارض ، فقلت وما تأكلين ؟ لاحت غيمة دافئة من العين وكان وراءها دعر
الجوع والطاعون . أفتش في جيبي عن قطعة من النحاس او الزنك ،
وكانت يدى السكر ممدودة ، فلم أجد نقودا او تقويا ، وجسريت ان اصير
طفلا في الخامسة يفتدى حلوى السكر . أمتص وخوفى ولسانى جمرة نار ،
وطعم اليد الحلو شفاء وسقيا بالبرد والسكينة . وقالت أنا اطعمك من
جوع فقلت وما تطعمين ؟ ويد من حديد على خزائن القمح والزيتون واللحم
المقدد والفواكه المجففة ، وصناديق التمر والزبيب وبراميل الخمور . قالت
لمماذا المجاعة قلت هم ايدي الحديد سارقوا الحقول والضيعات من عبيد
الارض ذوو الوجوه المسكونة بالحقد المنفوخة بفيض الخير والامان على
اعوام من النهب . وتضاربت لمع البروق في عينيها وكانت سكران في دمي
وحرارة تذوب مع المص الملهوف ولا يبقى سوى عظم نحيل يشد الاطراف
بالاطراف . مصى شديد وانتهت حلوى السكر بالنخاع القصبى وما شبعتم .
قالت تأكل التفاح والرمان ؟ قلت هي النهاية ، جوعى أن آكلك وجوعك
موت فما تأكلين ؟ اتسعت عيونها وغاض الدمع في الاحداق ، وانفتحت

سرديب الدهشة في عيني ، على الخرائب المتهاوية والذعر الملاك في الإقباء الرطبة التي لا يسمع فيها سوى صدى صوت السلاسل ، ورائحتها الموت والجيفة ، وعلى الحيطان عظام مدقوقة تتوغل في الشروخ كأنها سيوف أثرية ، والجهاجم المسلوخة الجلد والشعر تلمع مع هبة الضوء ، وفي الأقباء الرطبة تنور يحيى من وقود أجساد هي التفاح والرمان والسكر . قالت : ما ترى ؟ قلت لا شيء . وعامت عينيها بأدمع ولا أدري ما كانت تراه .

مقاهة الوصول تنتهي بمدينة القبور ، والمساء متعب يخنى رأسه نحو الأفق الغيوم . لا وصول إلا بعد التيه في أزقة ظلامية متسريدة يخشاهم الأطفال ويضحك منها الشيوخ ويحاول الشبان قنص اللذة فيها ، أما النعش والاكثاف الأربعة — الكتلة المتلاحقة ، فمساؤها متعب وحصرة دموية تفصل بين التراب والأرض والرائحة .

في عينيها ضفاف أخرى بعيدة ، ونجوم تتقاذف وتضئ كل الأرض ، وبحر من الملح لا يعطي سوى الأحلام والغربة . وكانت الضفاف الأخرى في منفى الجزر الوحشية ، لا أحد يأكل فيها من أعوام الفهب ، وسيقان نباتية تعطي ثمارها إلا أحد . الإنسان غائب . ها نحن . والشبع له مذاق خاص ، هو النبات الأخضر الطازج . تضاحك في عينيها فرح الحياة وهي تجرى نحو أتبع . قالت وهل هذا طعام الأدميين ؟ وكنت اسمع ريحا في دواخلي ما تزال تقصف ، واشتم رائحة السجون في جلدي ، وكانت تبكي الغربة في العين وفي الرأس ، كنا نسبح في فضاء سديمي ، والرياح تظللنا ، نتنفس هوائها الثقيل الدافئ البارد الحار العليل الفائض ، ونحن لا ندري هل كانت هاته الضفاف كسفا أم خطيئة ، حلالا أم حراما .

عند ما بدأت أبحث عن ثورة ، لم أجد حولي في هاته الضفاف انسانا يتزاحم ويكتأف ، نطلعت الى الأفق البعيد أبحث عن وجوه كالأحجار وايد كهوى بالفأس ، وعيون تغرق في الدم لا ترى الحقول المسروقة المسقية بالدم المراق . قلت في خاطري : لا ثورة إلا مع الإنسان .

كانت تهيم في خضة الحشائش وهي تدعوني :

— تعال .

— هل أنت حواء ؟

— تعال . نحن نسكن الأرض لأول مرة .

— وهل أختار ذلك ؟

الصبت مسافة من الغربة تقطعنا . رعشات من الداخل تعصر للقلب . قالت :

— اقترب .

وكانت ثورتي أن أرفض اللعبة ، لكي لا يكون الإنسان الجائع ،

ولكى لا يقتتل قابيل وهابيل على كسرة خبز ، ولكى لا يصيح احد منسى
استعبدتم الناس ، ولكى لا يكون باب المحروق من ابواب فاس ،
والمحروق انسان ، ولكى لا يكون الانسان ثمارا ناضجة يهواها السيف ،
ولكى لا تكون وجوه من البشر وفيض الامان فى اعوام النهب . لن اقترب ،
لكى لا تكون الدوامة التى تتمخض عن الجوع فى البطن . والسيف على
الرقبة .

اتصل الجلد بالجلد ، ميتا متهرئا رقيقا ، وتحللت العروق المنتفخة
بالدم الجامد ، الى صفرة سائلة متلزجة ، وهكذا فبالدم كنا ، ينتصب
عروقا نابضة فاعلة ، حتى فى عروق العين التى تلون الحقول المسروقة
باللون الاحمر . وكيف ؟ لا نعلم . ومتى ؟ فى التاريخ المتوالد من نفسه ،
وفى الوجود الضيق الذى يسكن فى جوف خرافة تتناسل من ذاتها ولا يبقى
فيها من الحقيقة الا لون الحقول التى يمتطئها الدم الاحمر خارجا من عيون
عبيد الارض . وكنا نرفض ان نأكل من لحم الانسان حتى تكون لنا الحياة
القصيرة . وكان النعش يمشى فى زقاق عفن قديم ملتو تغسله دفقات
امطر ، وعلى جانبيه غابات وحشية وشيطان يعتمرها الموج ، وكان
انسان فى النعش الاول آكل والثانى مأكول وكلاهما ميت .

محمد عز الدين التازى